سياسة التوسع الفرنسي في الجنوب الغربي

(من خلال فتوى قورارة)

أ.الأمين بلغيث

استهلال[1]

من مبادئ الاستعمار الغربي الصليبي ففي بلدان العالم الإسلامي، العمل على تدمير أمس التقدم المعروفة عند شعوب هذا العالم المترامي الأطراف من " طنجة إلى جاكرتا " ومن " غانا" إلى" فرغانة " فهذا الفضاء الجغرافي الكبير يشتمل على أجناس وألوان ولهجات ولغات متعددة لكنها تاريخيا، وفي إطار النمط الإسلامي كانت إلى مطلع العصر الحديث مسلمة دينا، عربيا لسانا.

فلما دخل الاستعمار الفرنسي خاصة، ضرب على أوتار هدامة وهي إحياء الجذور العرقية للشعوب، كما فعل في الشام بتشجيعه للنزعة الفينيقية والتي كانت أهدافها القومية، الدعوة لإحياء اللهجات القديمة ومحاربة العربية لسان الثقافة الإسلامية. والقرآن العظيم، ونجح الإستدمار الفرنسي إلى حد بعيد في تكوين نخبة مسيحية في لبنان فهيأها للحكم والثورة على الوجود العثماني.

أما الجزائر، فقد كانت بالنسبة للغرب الصليبي، وما تزال الثغر والبوابة الحديدية التي تحطمت على أسوارها الأطماع الإسبانية و الفرنيسة منذ دخولها ضمن الحضارة العربية الإسلامية، وقد تنبه الداي " شعبان" وحكومته إلى مكانة الجزائر الدولية في مواجهة الغرب الصليبي ومخاطرة سقوطها. على العالم الإسلامي في العصر

الحديث. ومن الملاحظ أن تفاعلات احتلال الجزائر من طرف فرنسا الكاثوليكية لم يكن صدفة سفيرها" دوفال " من خلال حادثة المروحة[2]، ويظهر ذلك من خلال الحقائق الثابتة وهي أن الاستعمار فرنسا للجزائر قد شكل رأس الحربة لتمزق العالم الإسلامي، ومن هنا يكون من المناسب، ونحن نتحدث عن سياسة فرنسا التوسعية في الجنوب الغربي الجزائري وبلاد السنغال أن نحدد بشيء من التركيز على الميراث النكد الذي خلفته سياسة فرنسية المحكمة لضرب وحدة المنطقة وتمزيق نسيجها الاجتماعي والثقافي.

إن موضوع هذه الدراسة، ينطلق من حادثة قد تبدو - لغير المطلع على أسلوب للفرق العسكرية الفرنسية– ليست ذات أهمية بالمقارنة مع أسلوب الدمار الشامل للفرق العسكرية الفرنسية في الجزائر والسنغال لتهدئة الأوضاع بعد احتلال منطقة" تينفورارين"، " قورارة" في مطلع القرن العشرين (1900م) وما يصحب هذا من دمار شامل وهجرة جماعية لسكان إقليم " توات التاريخي، فبعد احتلال منطقة " قورارة" كانت الفرق العسكرية الفرنسية المرابطة في مدينة" سان لوي" بشمال السنغال تتهيأ لإفشال حركة عسكرية كبيرة بالمنطقة وبالموازاة مع ما يحدث من تمشيط الجنوب الغربي الجزائري وتتبع فلول القبائل الفارة من دمار المدفعية الفرنسية ووحشية وبربرية فرقها العسكرية. كانت تخشى عودة

الاضطرابات إلى هذه المنطقة فبدأت باستمالة أعيان المنطقة لتدجينهم من أجل نزع فتيل المقاومة أ طمأنة الناس إنسانية فرنسا التي جاءت إلى المنطقة بهدف إخراجها من دائرة العزلة وربطها بسبل الحضارة والتقدم .

وتهدف هذه السياسة إلى أمرين أساسين :

أولا: هذه السياسة على نشر النفوذ الفرنسي بالصحراء في هدوء واجتناب المواجهة المسلحة إلى حين .

ثانيا: إدماج السكان في الحضارة الفرنسية وتنصيرهم.

وقد أشار الأب شارل دوفوكو " أثناء إقامته بتامنراست 1905-1916" في نص صريح: " الأمر الأول هو إقامة النظام الفرنسي والحضارة في إمبراطوريتنا بالشمال الغربي الإفريقي ... والأمر الثاني هو: التبشير". ولم تميز أوربا في ذلك العصر بين الاستعمار والتنصير.

إن محور المداخلة هي : النازلة"[3] التي أرسلها أحد علماء المنطقة إلى شيوخ الإسلام بمكة المكرمة يطلب فيها رأي الشرع، فيما إذا تغلب الكفار على " وطن من أوطان المسلمين " ولم يكن في وسعهم رد الاعتداء، كما أ المحتل الكافر لأرض المسلمين، رغبتهم في

إقامة الصلاة وشجعهم على اختيار، إمام الصلوات الخمس والجمعة وإنهم لا يستطعون مغادرة أراضيهم لاستضعافهم وخوفهم من مشقة الطريق والابتعاد عن الأوطان[4].

كما أنه وفي المعنى بالذات أرسل حاكم الجزائر العام" جيل كامبون Jules Cambon 1891 -1897" نازلة في عام 1893م إلى نفس الشيوخ يستقبلهم حول شرعية وجودهم بديار المسلمين، إذا كانت السلطات الفرنسية لا تتدخل في شؤونهم الإسلامية، فهل يبيح الشرع إقامة مسلم تحت سلطة كافر[5].

وقد أجمع شيوخ المذاهب الإسلامية الأحناف، المالكية والشافعية على وجوب إقامة المستضعفين إذا أقاموا دينهم وشعائرهم مع الظروف المذكورة في النازلة (الفتوى) وكان الرد حسب الوثيقة مؤرخ في 22 جوان 1893 م.

وبحكم الغموض في سرد الأحكام الفقهية المعروفة وسوء فهم هؤلاء المشايخ مناط النازلة استطاع:" جيل كامبون "(Jules Cambon) حاكم الجزائر العام آنذاك أن يستغل النازلة وروج لها بطريقة عجيبة إذ أن " النص المطاط أعطى لفرنسا حججا مكنها من استعمالها لصالحها وتشير الوثائق الموجودة بأرشيف ما وراء البحر الخاصة باحتلال منطقة قورارة (تينقوراين) وإقليم توات[6]

والمراسلات المتبادلة بين حاكم إقليم وهران وحاكم الجزائر العام والسلطات الاستعمارية في السنغال وبلاد الهقار والمستعمرات الفرنسية الأخرى، ساحل العاج، مالي،غينيا الفرنسية، التوسعية والسيطرة على السكان بأقل الخسائر الممكنة وتحقيق اهدافها ومشاريعها الاقتصادية والعسكرية مثل مد خط السكة الحديدية من المنطقة الغربية إلى ورقلة ومنها إلى أقاليم الصحراء الشرقية وإحكام الطوق لاحتلال مدينة " جانت " ومحاصرة الزوايا السنوسية المناهضة للوجود العسكري الفرنسي في لصحراء، وهذا بتحالفها مع قبائل الهقار والقبائل العربية في شمال تشاد [7].

ويشير مؤرخ الجيل أبو القاسم سعد الله إلى هذا الأمر فيقول:" وكانت سياسة الدولة العثمانية الإسلامية وخوف فرنسا على الوضع الداخلي بالجزائر، قد أجبرت الحاكم العام " جول كامبون على تزوير فتوى جديدة –(إشارة ربما لفتوى قورارة موضوع الدراسة) - تثبط المسلمين الجزائريين ضد الهجرة وتقاوم تأثير السياسة الإسلامية أو الدعاية العثمانية في الجزائر، وجول كامبون كما سلف، هو الذي أمر بدراسة نفوذ الطرق الصوفية ومعرفة ما كان منها "وطنيا " أي نابعا من الجزائر و ليس له فروع أو أصول في المشرق، وما كان منها " عالميا " أو مشرقيا له فروع وأصول[8]. وكانت فرنسا الاستعمارية قبل ذلك قد استعانت بالجاسوس الشعير ليون روش متنكرا في الزي العربي الإسلامي

الذي أرسل إلى أهل القيروان والأزهر ومكة والرباط قبل هذا، وجاء علماء هذه الحواضر والدول " بفتوى " أعدتها مسبقا مصالح المخابرات الفرنسية، وختمت عليها أيدي علماء الإسلام " الأعلام " في الأماكن المذكورة ...فعلقت على جدران المساجد وقرئت في الخطب ونشرت في جريدة المبشر وسارت بها الركبان إلى الأرياف والآفاق ونادى بها البراحون في الأسواق، وكلهم يقولون :" لا للهجرة الجماعية للمسلمين ولا لحمل السلاح في وجه الكفار ماداموا لم يتعرضوا للدين بالأذى وما دام المسلمون عاجزين عن إخراجهم من الجزائر بالقوة "[9].

وما يمكن أن نذكره أن هذا الجاسوس و الذي تمكن البوحميدي عضد الأمير عبد القادر في جهاده ضد فرنسا الاستعمارية –من اكتشاف أمره منذ مدة طويلة قد استعان بشرفاء وزان من أهل الطريقة الطيبية في استصدار الفتوى المشهورة عام 1843م وهذا في أيام السفاح بوجو كما أنه لما أرسل إلى مكة وفي نفي عام 1842م وافق على فتواه علماء مكة ومجلسهم الموقر الذي دعى إليه الشريف غالب حاكم مكة المكرمة إلا محمد بن علي السنوسي الذي رفض التوقيع على استسلام أبناء المسلمين المجاهدين في الجزائر وهو ما يذكره ليون روش في كتابه الشهير" اثنان وثلاثون سنة في الإسلام "[10].

لقد حمل ليون روش نص فتوى إلى علماء مكة ليوافق عليه، ومحتوى النص هو دعوة الجزائريين إلى الكف عن حرب الفرنسيين ما داموا قد سمحوا بالعبادة ومعلوم أن روش قد روى بنفسه في كتابه القصة وكيف ذهب إلى مكة ومن رافقه من مقدمي الطرق الصوفية الجزائريين وكان ذلك عام 1842 م وقد اعترف ليون روش العالم الوحيد الذي عارض الفتوى في المجلس العلمي كما ذكرنا سابقا هو محمد بن علي السنوسي الكبير.

2 - النازلة ومسألة الولاء والبراء

إن هذه النازلة تطرح مسألة معروفة في الفقه الإسلامي، ولها علاقة وثيقة بعقيدة "الولاء والبراء ،ولم تكن غريبة عن تاريخ الجزائر الحديث حيث ظهرت أولا عند العلامة أحمد بن يحي الونشريسي صاحب المعيار الذي عاصر ظروف المسلمين بعد سقوط غرناطة عام 1492 م آخر معاقل الإسلام المحاصر في أوربا الجنوبية الغربية، وعنوان رسالته "أسنى المتجر في بيان أحكام من تغلب على وطنه النصارى ولم يهاجر وما ترتب عليه من العقوبات والزواجر"[11]. وقد تجدد النزلة على يد الأمير عبد القادر وسماها:" حسام الدين لقطع شبه المرتدين" [12].

إن رسالتي الونشريسي والأمير عبد القادر متحدتان في الموضوع والدافع مختلفتان في الحكم والهدف، فموضوعها فتوى دينية في قضية إسلامية ودافعهما،استفتاء وجه كل منهما من طرف مستفتيها في قضية الهجرة الشرعية. وهدف الونشريسي بفتواه أن يعود المسلمون القاطنون تحت ذمة الكفار في الأندلس إلى صوابهم ويدخلوا إلى دار الإسلام بالمغرب ويتوبوا من ذنب كبير قد ارتكبوه.وهدف الأمير –بفتواه –إرواء ظمأ مستفتيه وإطلاع سائله عل حكم لشرع فيمن بقي تحت ذمة الملة الكافرة ولم يهاجر إلى دار الإسلام و التي تحت حوزته بالمغرب الجزائري.

ونجد الأمير قد أخطأ في توقعه وخاب اعتقاده، إذ أن جميع من بقي من المسلمين تحت ذمة الفرنسيين بأرض الجزائر قد بقي مسلما قلبا وقالبا[13]وقد انتصر إلى هذه الفتوى علماء الجزائر كقدور بن رويلة ومصطفى بن الكبابطي وعلي بن الجفاف، ولو امتثل الجزائريون رأي الأمير لها جروا جميعا من أرض الجزائر المحتلة وأخلوا البلاد للفرنسيين وذلك ما كانوا يبتغون بل كانوا يشجعون على هذه الهجرة التي هي سياسة فرنسية ماكرة لإفراغ الجزائر من سكانها ونخبها وفرسانها حتى تحقق حلم نخبتها البرجوازية الفرنسية في المزيد من الاحتلال والقتل للسكان في مجازر تاريخية لإفراغ الجزائر من سكانها [14].

أما الظروف والملابسات الخاصة "بنازلة قورارة "[15] فمختلف حسب ما تقتضيه المراسلات وما تتضمنه الوثائق التي تمكنا من الإطلاع عليها، فهي " الصورة الثانية للهدف الفرنسي المرجو من إقامة مرحلة سلم بالجنوب الغربي الجزائري للتفرغ إلى مشاريعها الاستعمارية في السنغال ومالي وساحل العاج والكونغو وغينيا، بعد القضاء على " جهاد عمر الفوتي[16] الذي كان هدفه الأسمى القضاء على تحالف القبائل والإمارات الوثنية، الموالية للاستعمار الفرنسي، وإقامة دولة إسلامية بعيدة عن نفوذ الاحتلال الفرنسي الكافر.

كما أن حاكم الجزائر العام "جيل كامبون" لا يزال تحت تأثير زيارة الوفد البرلماني الفرنسي عام 1892م بقيادة جول فيري (Jules Ferry) الوزير و الرأس المدبرة للفكر الكولونيالي [17]،" حيث اغتنم الجزائريون فرصة وجود لجنة جول فيري بينهم سنة 1892م وتقدموا إليها بمطالبة قوية بما في ذلك تحوير نظام الضرائب وإصلاح التمثيل النيابي واستعادة القضاء الإسلامي"، وفوق كله كما قال "فيري" فإن الجزائريين قد طلبوا من الفرنسيون أن " دهونا وحدنا "[18].

كما أن فرنسا الاستعمارية لا تزال تعيش حالة الاضطراب الذي عرفته أثناء ثورة بوعمامة(1881-1908) [19].

هذه الملابسات كلها تركت سبيلها لإضفاء الدعاية الكبيرة على فتوى شيوخ الإسلام المؤرخة كما أسلفنا في 22 جوان **1893**م وهي بذلك تسعى إلى كسب ود أعيان منطقة الصحراء وإدماجهم ضمن دائرة العائلات الكبيرة التي يسميها المؤرخون " أرستقراطية العصور الوسطى" أو الخيام الكبيرة أو النخبة التقليدية وعلى أية حال فإن فرنسا قد نجحت في كسب العائلات الكبيرة وسحبت منها الغطاء السياسي والروحي والتمثيلي لدى الجماهير .

وقد عملت السلطات الاستعمارية على توسيع رقعة احتلالها بالجنوب الغربي وربطت المنطقة بالسنغال و بمناطق نفوذها فيما يعرف بإفريقيا الغربية الفرنسية أو بلاد السودان الفرنسي (**20**).

أما حظ فتوى شيوخ الإسلام في السنغال فقد أشارت وثائق الأرشيف الفرنسي إلى قوة الدعاية التي قامت بها فرنسا في السنغال من اجل مسح أثار جهاد الشيخ الحاج عمر الفوتي ودولته الإسلامية الذي لا يزال يتردد صداها منذ نهاية الستينات من القرن التاسع عشر، وهو النجاح الذي تحقق بالموازاة مع دور المبشرين والجواسيس والمكتشفين الأوربيين والمستشرقين خبراء الاستعمار – في تشويه صورة الإنسان الإفريقي بالمنطقة (**21**).

إن محتوى العمل الدعائي الذي قامت به دوائر الإعلام والدعاية الاستعمارية جديرة بالاهتمام كمرحلة ومنهجية متبعة ضمن أساليب الغزو والتدمير الذي تقوم به الفيالق العسكرية الفرنسية، ولهذا فما قامت به فرنسا أمام هذه النماذج الدعائية لكسب شرعية وجودها في ديار وأوطان المسلمين التي أبرزتها الوثائق التي أشرنا إليها تبرهن على الأساليب المحكمة المتبعة في غزو الأرض واستغلال الثروات وتحييد أو تشويه النخب المتعلمة الواعية كلها معا تحدد ملابسات إخضاع أقاليم ومناطق الصحراء الجزائرية إلى قوانين فرنسا الاستعمارية بشتى الأساليب وأحط الوسائل .

لقد كان انتقام وإتباع سياسة الأرض المحروقة في الجزائر عام وقصور الصحراء خاصة، انتقاما لقتلاها وعدم استسلام أهالي المنطقة الذين دافعوا عن شرف قراهم وقصورهم ومدنهم بكل ما يدعو للتألم من صبر هؤلاء الرجال المجاهدين وكيف قابلتهم فرنسا المتحضرة بمجازر لا تزال دماء شهداء " أنغر الأولى والثانية وقصر باجودة الشامخ وهضبة تيديكلت " التي تتحدى الغزاة شاهدة على جهاد أهل المنطقة دفاعا عن الدين والشرف و الوطن [22]

الوثائق و الملاحق

-نص الفتوى :

ما قولكم في أهل بلدة مسلمين قد استولى عليهم الكافر وصار حاكما عليهم، ولم يتعرض لهم في أمور دينهم، بل يحثهم على إجراء أحكامهم الدينية ووظف عليهم قاضيا من أهل دينهم يجري عليهم الأحكام الشرعية، وجعل له معاشا وافرا يأخذه على رأس كل شهر، فهل مع هذا تجب عليهم الهجرة أم لا ؟ وهل تجب عليهم مقاومته ومحاربته مع عدم قدرتهم على ذلك أم لا ؟ وهل بلدهم التي استولى عليها يقال لها دار حرب أم دار إسلام، بينوا لنا بيانا شافيا قاطعا للنزاع أيد الله بكم الدين.

الكون استمد التوفيق و العون

من

حامد

سماحة

محمد

الإجابة:

قال شيخنا العلامة رحمه الله في جواب نحو المسول (كذا) عنه: المهاجرة واجبة من موضع لا يتمكن الرجل من إقامة أمور دينه بأي سبب كان ومن لم يقدر على ذلك يجيب عليه الهجرة إن قدرة عليها بان كان له مال يكفيه لمؤنة الانتقال، فقد قال الله سبحانه وتعالى في حق قوم أسلموا ولم يهاجروا مع تمكنهم من ذلك (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم، قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض،قالوا، ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) الآية:

فلم يعذرهم ربهم مع استضعافهم بتمكنهم من المهاجرة إلى محل آخر إلا من استثنى في آخر الآية قال تعالى (إلا المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان). الآية و المعنى أن جهنم مأوى جميع من ترك الهجرة إلا من هو مستضعف من جنس الرجال والنساء والولدان حال كونهم لا يستطيعون حيلة في الخروج لعجزهم وفقرهم و لا يهتدون سبيلا أي معرفة لهم بالمسالك فأولئك عسى الله أن يغفر عنهم ترك الهجرة .ا.هـ.

كذا قاله علماء التفسير وقال صلى الله عليه وسلم : من فرّ بدينه من أرض إلى ارض وإن كان شبرا من الأرض، استوجبت له الجنة وكان رفيق أبيه إبراهيم ونبيه محمد صلوات (كذا) الله عليهم أجمعين، وفي معراج الدراية عن المبسوط: البلاد التي في أيدي الكفار بلاد إسلام، لا بلاد حرب لأنهم لم يظهروا حكم الكفر بل القضاة و الولاة مسلمون يطيعونهم عن ضرورة أو بدونها وكل مصر فيه وال من جهتهم يجوز له إقامة القاضي قاضيا بتراض المسلمين ويجب عليهم أن يلتمسوا واليا مسلما ا.هـ.

وفي تنوير الإبصار وشرحه الدر المختار: لا تصير دار الإسلام، دار حرب إلا بأمور ثلاثة بإجراء أحكام أهل الشرك وباتصالها بدار الحرب وبأن لا يبقى فيها مسلم أو ذمي آمنا بالأمان الأول على نفسه.ا.هـ.

قال:" العلامة الطحاوي" في حاشيته عليه وظاهرة أنه لو أجريت أحكام المسلمين وأحكام أهل الشرك لا تكون دار حرب .ا.هـ.

فعلم مما نقلناه أنه، متى وجد قاض من المسلمين ولو بإقامة الكافر له وأجريت أحاكم المسلمين على ما وصف أعلاه لا تخرج البلاد عن أن تكون دار إسلام ا.هـ.والله سبحانه اعلم، أمر برقمه خادم الشريعة والمنهاج عبد الرحمن بن عبد الله سراج الحنفي مفتي مكة المكرمة كان الله لهما حامدا مصليا مسلما .

الختم

الله

عبد الرحمن

سراج

الحمد الله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه و السالكين ولنهجهم بعده.

اللهم هداية للصواب.

في فتاوى العلامة الشيخ محمد بن سليمان الكردي محشي شرح ابن حجر أن إقامة المسلمين بدار الكفر على أربعة أقسام:

إما لازمة بان قدورا على الامتناع من الكفر والاعتزال عنهم ولم يرجوا نصره المسلمين لان موضعهم دار إسلام، فإذا هاجروا صار دار حرب، أو مندوبة بان أمكنهم إظهار دينهم ويرجى ظهور الإسلام هناك أو مكروهة بان أمكنهم ولم يرجوا ذلك أو حرام بأن لم يمكنهم إظهار دينهم فحينئذ إذا كان في إظهار الدين وأحكام المسلمين من حدود وغيرها إهلاك البلاد و قتل المسلمين بسبب أنه يتعاطاه الوالي الكافر عليها فيعذر انتهى :وفي شرح الجمال الرملي على المنهاج إلا وجهان دار الإسلام التي استولوا أي الكفار عليها كذلك أي في التفصيل المذكور انتهى.

ومن ذلك علم حكم السؤال الأول وجواب السؤال الثاني: لا تجب مقاومة الكفار مع عدم القدرة ولله اعلم وجواب السؤال الثالث أن البلاد الإسلام لا تصير باستيلاء الكفار عليها دار حرب ولله سبحانه وتعالى اعلم، ورقما لما تجرى من به كلال النبل محمد سعيد أبن محمد بابصيل مفتي الشافعية بمكة المحمية غفر الله له ولوالديه ومشايخه وجميع المسلمين.

الختم

الحمد الله وحده اللهم هداية للصواب.

أما بعد فإني قد نظرت فيما أفاده السادة الإعلام فوجدته هو الصواب المعول عليه ولا يكون الاعتماد إلا عليه فجزاهم الله أحسن الجزاء وأقام بهم شعائر الدين وبا الله (كذا) الاعتماد .

أمر برقمه مفتى السادة المالكية بمكة المحمية محمد عابد ابن المرحوم الشيخ حسين.

الختم.

-أثر الفتوى في المستعمرات الفرنسية:

ترجمة رسالة حاكم السودان الفرنسي (مالي) (من ترجمتنا)

كيس (المالي) في 17 يناير 1894.

أ.قرودي، حكام السودان (الفرنسي) إلى السيد: نائب كاتب الدولة للمستعمرات لقد شرفتموني في رسالتكم المؤرخة بتاريخ 9 ديسمبر الماضي تحت رقم :243 التي تتضمن نسخا من "الفتوى" التي رد فيها شيوخ المذاهب الثلاثة الأحناف، الشافعية والمالكية المقيمون بإفريقيا الشمالية، وهذا على ما طلبه حاكم الجزائر العام (جيل كومبون Jules Cambon) لمعرفة شرعية خضوع المسلمين تحت سلطة الكفار.

وقد طلبتم مني تسليم هذه النماذج إلى أعواننا الضابط أو موظفينا المتواجدين في الأقطار الإسلامية .

إن الدراسة المعمقة لهذه الوثيقة تجعلني أفكر بأنه من غير المناسب تبليغها إلى إتباع الإسلام الموجودين بالسودان الفرنسي.

إن الشعوب السوداء بالمستعمرة الذين يتبعون أحكام القرآن هم:

أولا : التكرور : ثم يليهم قدماء الوثنيين الذين انضموا تدريجيا إلى الدين (الإسلامي)بعد فتوحات الحاج عمر (الفوتي).

وإذا كان الأولون الذين كانوا ولا يزالون المبشرون الحقيقيون للإسلام في السودان الذين تمكنوا آنذاك بمساعدة قوتهم العسكرية من فرض دينهم على عدة أقوام وثنية، وبقوا مع ذلك على دراية غير كافية بالكتاب المقدس ومفسريه.

إذ لم يتلقوا تربية دينية كاملة، لتي يتمتع بها عرب الجزائر، ومرابطوهم ليسوا سوى متعصبين جهلة، أما فيما يخص هؤلاء الوثنيين الذين أسلموا فإنهم أقل تنويرا قليلو الإلمام بدينهم الجديد من التكرور، حيث أنهم لا يتكلمون ولا يقرؤون العربية، والقليل منهم فقط يستعمل الحروف العربية لكتابة لهجاتهم الخاصة.

وخلاصة القول: لا هؤلاء، ولا هؤلاء يمكن مقارنتهم – فيما يخص علوم الدين – مع شعوب الشمال الإفريقي، وأكثر من ذلك شعوب الشرق، غير أنهم كلهم يعوضون نقص معرفة شريعة الرسول، بتعصب أعمى ولا يسمعون للاستدلال وغير قادرين إلا على أن تكون موضع تفكير أو دراسة.

في مثل هذه الظروف ونظرا الأسلوب الفتوى الملتوي فإنه يتوجب علينا الحذر في اعتقادي فإن مفعولها غير مجد وربما يكون عكسيا ،فالمرابطون سيتحفظون منها إلا العواطف الملائمة لأحكام الإسلام بدلا من روح الأجوبة المتعلقة بالفتوى التي طرحها حاكم الجزائر العام.

يتبين لي إذن من المستحسن عدم نشر هذه الفتوى في هذه الآونة اللهم إلا ، إذا صادفنا مرابط له من الذكاء والفهم يمكنانه من شرحها للمسلمين في الاتجاه الايجابي الذي يخدم مصالحنا، وهيمنتنا على السودان الفرنسي.

إني.....الخ.

الإمضاء: أ.قرودي

باريس في 5 مارس 1894

نيابة كتابة الدولة للمستعمرات

إلى السيد حاكم الجزائر العام.

السيد حاكم الجزائر العام، بما انه كان لي الشرف بإبلاغكم بتاريخ 9 ديسمبر الماضي، فقد حولت النازلة (الفتوى)وترجمتها إلى وكلائنا بالسنغال، السودان، غينيا الفرنسية، ساحل العاج، والكونغو، أين أجاب شيوخ – المذاهب الثلاثة الموجودين بإفريقيا الشمالية – عن سؤال حاكم الجزائر العام المتضمن إمكانية إقامة المسلمين تحت سلطة الكفار.

إن السيد حاكم السودان الفرنسي، يخشى أن يكون وقع الوثيقة سيئا على مصالحنا من طرف دعاة الإسلام بالمناطق الخاضعة لسلطته والذين يتلقون تربية دينية ناقصة جدا مع جهلهم بتفاسير القرآن.

لي الشرف أن أبعث لكم نسخة من تقرير حاكم السودان الذي يوافق هذه الرؤية و المضمون الذي يتضمن أفكارا هادفة، وأضيف أن السادة حكام غينيا الفرنسية، ساحل العاج عكس ما ذهبنا إليه يقترحان نشر هذه الفتوى في كل بقاع هاتين المستعمرتين أين يتبين جدوى ذلك.

تقبلوا سيدي الحاكم العام خالص تقديري واحترامي

موريس لولو.

آثار فتوى قورارة ومواقف حاكم السودان الفرنسي منها (كتابة ونسخ النص الفرنسي)

Description de la lettre du gouverneur du Soudan français.

Kayes le 17 Janvier1894.

M.A Grodet, Gouverneur du Soudan à Monsieur le Sous-secrétaire d'Etat des colonies.

Monsieur le Sous-secrétaire d'Etat.

Par lettre en date du 9 Décembre dernier N°243, vous m'avez fait l'honneur de me transmettre des exemplaires d'une « Fétouah », dans laquelle les chef des trois ordres religieux établis dans le nord de l'Afrique, les hanafites, les Chaféites et les Malékites répondent, comme l'avait demandé le Gouverneur Général de l'Algérie, à la question de savoir si les musulmans peuvent obéir à des infidèles, vous me prescrivez de remettre ces exemplaires à ceux de nos agents officiers ou fonctionnaires qui se trouvent en pays musulman.

L'étude attentive de ce document me porte à penser qu'il n'est peut- être pas expédiant de la communiquer aux adeptes de l'Islam dans le soudan français.

Les populations noires de la colonie, qui suivent les préceptes du coran, sont d'abord les Toucouleurs, ensuite les anciens Fétichistes gagnée peu à peu à la religion de Mahomet à la suite des conquêtes d'El Hadj Omar Si les premiers ont été et sont encore les véritables propagateurs de l'Islam dans le Soudan, si aidés jadis par leur puissance militaire, ils ont pu imposer leurs religion à plusieurs peuplades Fétichistes, ils sont restés, cependant, peu instruits du livre sacré et de ses commentateurs, Ils n'ont point reçu l'éducation religieuse complète des arabes d'Algérie, et leurs marabouts ne sont que de fanatiques ignorants, quant aux anciens Fétichistes devenus musulmans, ils sont encore beaucoup moins éclairés dans leurs nouvelle religion que les Toucouleurs, ils ne savent même pas parler et lire l'arabe ; quelques uns seulement se servent des caractères arabes pour écrire en leur propre dialecte.

En résume, ni les uns, ni les autres ne peuvent être comparés, au point de vue de la science religieuse, aux populations du nord de l'Afrique et encore moins à celles de l'orient mais, tous suppléent à ce défaut de connaissance des

lois du prophète, par un fanatisme sourd aux raisonnement et non susceptible de réflexion ou d'examen.

Dans ces conditions, et étant donné surtout le style plein de détours de la « Fétouah »,il serait à craindre, je crois, que l'effet produit par la communication de ce document ne soit, tout autre que celui sur lequel nous pourrions compter.

Les Marabouts en retiendraient ces réticences, les subtilités favorables é cause de l'Islam plutôt que l'essence même des réponses faites à la question du Gouverneur Général de l'Algérie, Il m'a paru- donc, préférable de ne pas publier la « Fétouah » pour le moment, sauf à l'utiliser si on rencontrait un Marabout assez intelligent et assez instruit pour l'expliquer aux musulmans dans un sens favorable à nos intérêts et à notre prédominance au soudan français

Je suis etc.

Signé : A.Grodet

الإحالات

(1) - هذه مداخلة قدمتها في الملتقى الوطني الذي نظمه إتحاد المؤرخين الجزائريين بمدينة عين صالح ولاية تمنراست بين 21 - 23 ديسمبر 1991م، وقمت بإعادة النظر فيها وأدمجتها ضمن كتابي(تاريخ الجزائر المعاصر)، القسم الأول.

(2) - قال رجل الدولة النمساوي الشهير وينمبرغ ميترنيخ الخبير بقضايا السياسة الخارجية ونوايا فرنسا التوسعية.

« Metternich-Winneburg, le célèbre homme d'état autrichien qui était un connaisseur en matière de politique étrangère française qui pendant et après le premier empire, écrivait : » ce n'est pas pour un coup d'éventail qu'on dépense cent millions et qu'on expose 40 .000 hommes »

أنظر

Benachenhou (a), l'état algérienne en 1830 ses institutions sous l'émir Abdelkader, Alger, imp., e. p. a, p : 5.

(3) - أنظر نازلة فقهاء الإسلام (فتوى قورارة) المؤرخة في 22 جوان 1893م: الوثيقة رقم: 1 (ملحق الوثائق)

Exercice de la religion de l'islam dans les pays infidèles, d'une fetoua des trois chorfas de la Mecque (hanafite-malekite-chafeite) 22 juin 1893 (a.o.m) 22h35,

traduction de la fetoua (pèlerinage de 1893) g.g.a (la zaouïa de - tamassine) (a.o.m) 22h28.

(4)- أنظر:

Commandant m.lesourd, statut des personnes et des terres au Sahara (a.o.m) 10h90(3).p.27

- Exercice de la religion de l'islam dans les pays infidèles, d'une fetoua des trois chorfas de la Mecque (hanafite-melekite-chafeite) 22 juin 1893 (a.o.m) 22h35,

أنظر أيضا: رسالة الأمير عبد القادر إلى قاضي فاس الشهيرة:

Ahmed nadir, « les ordres religieux et la conquête française (1830-1851)- revue algérienne des sciences juridiques économiques et politiques, volume IX, n°4, décembre, Alger 1972, p.841 et suivants.

و يعلق الأستاذ سعد الله فيقول: كيف اطلع علماء مكة على الفتوى (فتوى قورارة)؟ هل يوجد جول كامبون شخصية أخرى كشخصية الجاسوس ليون روش؟ أو استعمل بعض الحجاج الجزائريين فقاموا له بالمهمة. وسنذكر شخصية غريبة أخرى وهو كورتيلمون الذي استعمله كامبون في مهمة إلى الحجاز خلال هذه الظروف و قد استعان جير فري كورتيلمون بأحد الحجاج الجزائريين لتوصيل الفتوى إلى شيوخ الإسلام أنظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص: 366

(coutellement, jerfrey, voyage au hijaz édition 1952)

(5) - أنظر فتوى قورارة و ملابساتها في الملحق الخاص بالوثائق:

Exercice de la religion de l'islam dans les pays infidèles, d'une fetoua des trois chorfas de la Mecque (hanafite-malekite- chaféite) 22 juin 1893(a.o.m) 22h35.

(6)- حول ظروف احتلال تينقورارين و ملابستها الوضع السياسي في الجنوب الغربي الجزائري راجع: إبراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري.الجزائر، مطبوعات متحف المجاهد 1996مص:114وما بعدها.

أنظر:-(7) générale meynier (ancien commandant militaire du territoire des oasis) la guerre sainte de la senoussya (cahirs Charles de foucould) arthurd France 1946, pp :119-143.

h. Duveyrier, la confrérie musulmane de sidi Mohamed ben Ali essenousi et son domaine géographique. Roma, tipografia del senato 1918, p : 33.

Incendies en Algérie et sénousite 1894-1895(rapport de Mr Ricard vice consul de France à Benghazi à m : le ministre des affaires étrangères à paris, Benghazi le 14 octobre 1894 (a.o.m) 16h 57.

(8) - أبو القاسم سعد الله، دور المهّجرين الجزائريين في بلاد الشام -(أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر)، بيروت، دار الغرب الإسلامي 1996 م ص :195.

(9) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء السادس، ص: 365.

للتذكير فقط أن (الإسلام الطرقي) قد عمل في ركاب الاستعمار الفرنسي و هذا بمساعدته أيام بوجو و أيام جيل كومبون و تتمثل الطرق الصوفية التي كان لها الدور الكبير في استصدار هذه الفتوى التجانية، بالجزائر و الطيبة الطريقة الأم بوزان. و التجانية و الطيبية من الطرق المعادية للأمير عبد القادر أثناء جهاده ضدا لاحتلال الفرنسي للبلاد: أنظر: يوسف مناصريه، مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب(1847 - 1832)، الجزائر،المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990م ص :40 -41. أنظر ايضا: تلمساني بن يوسف، الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر"الحكم العثماني، الأمير عبد القادر، الإدارة الاستعمارية" رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، معهد التاريخ جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1997 -1998

(10) - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج4 ص254.

(11) - حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، دراسة وتعليق محمد بن عبد الكريم الجزائري، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981م ص: 6.

أنظر احمد بن يحي الونشريسي، **كتاب الملايات و مناصب الحكومة الإسلامية والخطط الشرعية** نشر وتعليق محمد الأمين بلغيث، لافوميك، الجزائر 1985 م ص :18، محمد عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح و تعليق ممدوح حقي، الطبعة الثانية، بيروت، دار اليقظة العربية للتأليف و الترجمة و النشر 1964 م ص: 411

(12) - بن عبد الكريم، حكم الهجرة، ص :6 و ما بعدها.

(13) - نفسه ص :6 . وما بعدها.

(14) - حول المجازر والهجرة والتهجير أنظر:

أبو القاسم سعد الله، دور المهّجرين الجزائريين في بلاد الشام (أبحاث وآراء) الجزء الرابع ص: 193.

عمار هلال، الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام(1847 - 1918) الجزائر لافوميك، 1986م، ص: 30 وما بعدها.

و قد تناول الجزائريون الهجرة الجزائرية في الدراسات مستفيضة منها المطبوع ومنها المخطوط أنظر الأستاذة نادية طرشون، "الهجرة الجزائرية إلى المشرق العربي"، كلية الآداب بجامعة دمشق، 1985م .

- سهيل الخالدي، الإشعاع المغربي في المشرق" دور الجالية الجزائرية في البلاد الشام" تقديم: أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار الأمة 1997م، ص: و ما بعدها.

(15) - استطاع الدكتور سعد الله أن يفصل محتوى الفتوى ولم يطلق عليها الاسم الذي جاء في الوثيقة الرسمية المنشورة في المستندات فيقول أستاذ الجيل أبو القاسم سعد الله:" تتكون فتوى كامبون من مقدمة و ثلاثة أسئلة: أما المقدمة فهي: إذا كان الكفار(الفرنسيون) قد احتلوا أرضا إسلامية، و لكنهم لم يضعوا أية عراقيل لممارسة المسلمين ديانتهم - بل يشجعونهم على القيام بشعائرهم الدينية، و يعينون القاضي منهم لينفذ أحكام الشريعة، و يخصصون لهذا القاضي راتبا شهريا، فهل يجب على المسلمين:

1 - أن يهاجروا أو لا؟

2 - هل يدخلون في حرب ضد الكفار لينتزعوا منهم السلطة، و لو كانوا غير متأكدين من أنهم يملكون القوة لتحقيق الانتصار عليهم؟

3 - هل المكان المحتل من قبل الكفار يعتبر أرضا إسلامية أو أرض حرب؟؟..

أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء السادس، ص: 365

(16) - حول الولاة و البراء وحركة الحاج عمر الفوتي الجهادية:آدم عبد الله الآلوري، الإسلام في نيجريا والشيخ عثمان بن فوديو الفلاني المجاهد الإسلامي الأكبر بغرب إفريقيا و الجد الأعلى للشهيد أحمد بللو، بيروت الطبعة الثالثة، دار العربية 1398ه/1978م، ص: 9 وما بعدها.

أنظر أيضا:

Voila ce qui est arrivé (bayan-ma waqaa) d'al hagg umar al-futi (plaidoyer pour une guerre sainte en Afrique de l'ouest au XIX siècle édition critique et traduction par sidi Mohamed Mahibou et jean louis triaud, texte arabe et traduction français, édition du c.n.r.s, paris 1983, p.7 et suivante.

أما نص التقارير الخاصة بمنطقة نفوذ "الحاج عمر الفوتي" و كيف كانت تعالجها المصالح العسكرية و الإدارية الفرنسية فهي ما جاء في تقرير نائب كاتب الدولة للمستعمرات و هذا في رسالة إلى " جيل كومبون" حيث فيهم من رفض نشر الفتوى في بعض المستعمرات كساحل العاج و غينيا الفرنسية أما باقي المناطق و على الخصوص السودان الفرنسي (المالي) فهم يتحفظون من نشر الفتوى بين المسلمين الآن على الأقل كما جاء في التقرير:" السيد حاكم الجزائر العام، بما أنه كان لي الشرف بإبلاغكم بتاريخ9 ديسمبر الماضي، فقد حولت النازلة(الفتوى) وترجمتها إلى وكلائنا بالسنغال، السودان، غينيا الفرنسية، ساحل العاج، و الكونغو أين أجاب شيوخ - المذاهب الثلاثة الموجودين بإفريقيا الشمالية - عن سؤال حاكم الجزائر العام المتضمن إمكانية إقامة المسلمين تحت سلطة الكفار. أن السيد حاكم السودان الفرنسي(قرودي)، يخشى أن يكون وقع الوثيقة سيئا على مصالحنا من طرف دعاة الإسلام بالمناطق الخاضعة لسلطة و الذين لم يخضعوا لتربية دينية كاملة مع جهلهم التام بتفاسير القرآن.

أنظر: الوثيقة و ترجمتها بملاحق هذا البحث.

(17) - أنظر، تقييم سارتر للسياسة الكولونيالية و مفكرها" جيل فيري"(jules ferry) جان بول سارتر، عارنا.. في الجزائر، ترجمة عايدة و سهيل إدريس، بيروت ط.2،

دار الآداب 1958م، ص: 56. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج4 بيروت، دار الثقافة، ط.2، 1980م، ص:303.

أنظر أيضا تعليق جيل فيري عن سيطرة النخبة الكولونيالية في نهاية القرن التاسع عشر و هذا من خلال السيطرة على قوت و أرزاق الجزائريين و إرهاقهم بالضرائب إلى درجة لم تعريفها الإنسانية، كما أن جيل فيري حينما طرح فلسفته حول المدرسة العمومية و التعليم أخبره غلاة المعمرين أن العرب غير قابلين للتعلم و التربية فهم أقرب إلى الحيوان منهم إلى الإنسان:

Jules ferry, le gouvernement général de l'Algérie 1892 in français collette jeanson, l'Algérie hors la loi, collection sad Enag, éditions Alger 1993, p :59.

(18) - أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية(1900 -1930) الجزء الثاني بيروت، الغرب الإسلامي 1992م، ص: 77.

(19) - عن ثورة بوعمامة راجع:

e. Graulle, insurrection de bou-amama,(avrile1881), paris, 1905, p 7

أنظر أيضا، إبراهيم مياسي، دور ثورة الشيخ بوعمامة في التصدي للتوسع الاستعماري، المصادر(مجلة فصلية تعني بشؤون الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954)، الجزائر، العدد الأول صيف 1419ه/1999م، ص: 101 و ما بعدها.

(20) - أنظر:

Chaoui abdesselem, les marabouts vu par les explorateurs du 19eme siècle (mémoire de maîtrise (lille, France 1991-1992(90 pages).

أبو عمران الشيخ، شارل دي فوكو في تمنراست (1905 -1916) كتاب الأصالة الجزائر 1995م، ص:245 -459. أنظر أيضا. بشير مديني، شارل دوفوكوس قس أم جاسوس؟ الملتقى الوطني الذي نظمه اتحاد المؤرخين الجزائريين حول المقاومة بالجنوب الغربي بالتعاون مع وزارة المجاهدين، بين 21 -23 ديسمبر 1997م، ص: 8.

F.de Lachapelle, études , notes et documents du Sahara occidental présentés au VII eme congrès de l'institut des hautes études de rabat 1930.

(21) - النقيب ع.ف. لايون، مدخل إلى الصحراء، ترجمة الدكتور الهادي أبو لقمة، ليبيا، منشورات جامعة قاريونس، 1993م، ص:152.

(22) - د. إبراهيم مياسي، مئوية احتلال تبديكلت، جريدة اليوم العدد: 338، الخميس09 مارس 2000م، ص:21.